

حول قصيدة

للدكتور طه حسين

في مساء يوم من أيام سنة ١٩٢٠ دخل الأديب الفرنسي جاك ريفير على صديقه الشاعر العظيم بول فاليري . فرأى امامه صورة مختلفة لقصيدة أنشأها ، أو قل لقصيدة كان ينشئها . فأخلس صورة من هذه الصور ، ثم خرج فنشر هذه الصورة في مجلة من المجلات الفرنسية الكبرى .

وهذه القصيدة هي « المقبرة البحرية » ويجب أن تعلم أن بول فاليري لا يتم أثرا من آثاره الفنية وإنما يتركه . وهو يفسر لنا هذا حين يتحدث إلينا في بعض ما كتب من الفصول ، بأن الشعراء وأصحاب الفن في العصور القديمة ، لم يكونوا يتمون أثرا من آثارهم ، وإنما كانوا يعملون فيه ينقحونه ، ويهذبونه ، ينقصون منه ، ويضيفون إليه ، ويلاعنون بين أجزائه ، ينشغون الكمال ما وجدوا إلى ابتغائه سبيلا . حتى إذا أكرهوا على تركه أسلموه إلى النار أو أسلموه إلى الجمهور . فالنار والجمهور عند بول فاليري وعند أصحاب الفن الأقدمين سواء . كلاهما يمت الأثر الفني بالقياس إلى مبدعه لأنه يختص نفسه بهذا الأثر فيحرقه تحريقا ويقطع الصلة بينه وبين صاحبه ، ويجعله ملكا لنفسه ، يتمثله كإشياء أو كما يستطيع ويندوقه ، ويفهمه كما يريد ، أو كما تمكنه ملكاته الخاصة من الفهم والنوق . وبول فاليري حريص على هذه السنة الفنية القديمة ، فهو لا يتم كما قلت قصيدة من الشعر ، ولا فضلا من الشعر ، وإنما يمضي فيه مصلحا مهنيا ، ساعيا إلى هذه الغاية القريبة التي لا تدرك وهي الكمال . حتى تضطره الظروف إلى أن يدع قصيدته أو فصله أو كتابه لصديق مختلس كجك ريفير أو لناشر ملح ، أو لأي ظرف من الظروف التي تذيب آثار الشعراء والكتاب ، وتخرجها من أيديهم إلى أيدي القراء .

وكذلك فرضت هذه القصيدة في صورتها المعروفة على صاحبها فرضا ، ولعله لو خير لاختار صورة أخرى من هذه الصور التي كانت بين يديه ، لكنسه نظر ذات يوم ، فإذا المجلة الفرنسية الجديدة تنشره قصيدة « المقبرة البحرية » فلم يكن له بد من التسليم والاذعان . على أن من العسير جدا أن نتظفر في التاريخ الأدبي الفرنسي ، بقصيدة كثر حولها الحوار واشتد فيها الجدل ، وتشعبت فيها الخصومة ، كهذه القصيدة التي لا تزيد على أربعة وأربعين ومائة

بيت . فقد انفق النقاد الفرنسيون أعواما يدرسونها ، ويحلونها ، ويلتمسون معانيها ، وأغراضها ، ومظاهر الحسن ودخائله فيها . ثم لا يتفقون على ذلك بل لا يتفقون على شيء من ذلك ، بل يبلغ بهم الاختلاف أقصاه . فإذا بعضهم يرفع القصيدة إلى أرق منازل الآيات الشعرية الخالدة وإذا بعضهم ينزل بها إلى حضيض السخف الذي لا ينبغي الوقوف عنده ولا الالتفات إليه . وإذا الأوهم يتجاوز المجالات والصحف الأدبية إلى الصحف اليومية الكبرى ، ثم يشتد الخلاف وتنظم الخصومة حتى يضطر ناقد من كبار النقاد إلى أن يبدأ بمخاديقا وتحقيقا بعيدا لا مد ، فيختار قطعتين من هذه القصيدة ، ويعرضهما على الأدباء والنقاد المعروفين يسألهم عما يفهمونه منهما ، وما يرونه فيهما من الرأي ، ويدعوه ذلك إلى أن يسألهم عن أصل من أصول الفن الشعري ، ظهر أنهم لم يكونوا يتفقون عليه بحال من الأحوال ، وهو الواضح أنه ضرورة من ضرورات الشعر الجيد ، أم هو شيء يمكن أن يستغنى عنه هذا الشعر ؟ وإذا شئت الدقة والجلاء فقل أحب أن يكون الشعر الجيد واضحاً جلياً يفهمه من قريب من سمعه أو قرأه ، أم يستطيع الشعر أن يكون جيدا وإن حال الغموض بينه وبين فهم القارئ والسامع .

ولا يكاد يبدأ هذا التحقيق حتى يعود الخلاف حول القصيدة وصاحبها كما كان حادا غنيا متشعبا . وكان بول فاليري في أثناء ذلك قد انتخب عضوا في المجمع اللغوي الفرنسي . فيشير انتخابه حقا للحاقدين وحقن المحققين ، ويزيد الخلاف حدة وغنفا . وتستطيع أن تقول غير مبالغ ولا مسرف ان المثقفين الفرنسيين جميعا قد شغلوا بهذه القصيدة وصاحبها أعوام ١٩٢٧ و ٢٨ و ٢٩ .

وانتهى أمر هذه القصيدة إلى السوربون ، وما أقل ما تعنى السوربون بشعر المعاصرين ، وإذا استاذ من أساتذة الأدب فيها هو مسيو جوستاف كوهين يتخذها موضوعا لدرسه في تفسير النصوص الأدبية . وإذا هو يتخذها موضوعا لكتاب سماه محاولة لتفسير المقبرة البحرية . كل هذه الحركة الغنيفة والشاعر صامت لا يقول شيئا ، ساكن لا يأتى شيئا ، أو هو لا يقول ولا يأتى شيئا . يس هذا الخلاف العنيف حتى اضطرب صاحب التحقيق الذي أشرت إليه آنفا أن يكتب إليه ينبهه بأن كثرة الذين أجابوا على ما التقى إليهم من الأسئلة يعترفون بأن قصيدته معنى ولكنهم لا يتفقون على هذا المعنى ، وإنما يختلفون اختلافا شديدا في تحصيله ، ويسأله أن يبين ما أراد ليقطع الشك ويزيل الخلاف ، فلا يجيب الشاعر ويضطر كاتب آخر إلى أن يطالبه في صحيفة من الصحف الكبرى

بأن يبين للناس ما أراد أن يقول في هذه القصيدة ، ليظهر من اخطا من النقاد ومن أصاب ، ويصفه بالكبرياء ، وبالحرص على أن يغيظ النقاد ، ولكنه على ذلك كله لا يجيب حتى اذا ظهر كتاب استاذ السوربون ، نظر الناس ، فاذا الشاعر قد قدم بين يدي هذا الكتاب بمقدمه بديعة ممتعة ، يصفها بعضهم بأنها مثيرة للدوار ، لكثرة ما تشتمل عليه من المعاني والآراء في وضوح لا يكشف الحجاب عنها كل الكشف ، وفي غموض لا يريح القراء من التأمل واطالة البحث والتفكير . فاذا قرأت المقدمة البديعة الممتعة المثيرة للدوار ، لم يتبين فيها القارئ جوابا لهذه الاسئلة الملحة التي ألقاها النقاد على الشاعر يتمنون عليه فيها أن يبين لهم ما اراد ، وانما يجد القارئ في هذه المقدمة اراء مؤسسه من الوصول الى تحصيل المعاني التي اراد اليها الشاعر حين نظم قصيدته . فهو يقول مثلا : ان الناس يسألونني ماذا اردت ان تقول ؟ فانا لم ارد أن أقول شيئا وانما اردت أن اعمل شيئا ، ورغبتي في هذا العمل هي التي قالت ما يقرأون ، وهو يقول مثلا ان الاثر الفني الذي يصدره الشاعر أو الكاتب أو غيرهما من أصحاب الفن لا يكاد يخرج من يد منشئه حتى يصبح اداة من الادوات العامة يصر فيها الناس كما يريدون أو كما يستطيعون . ومعنى ذلك أن القصيدة اذا أذيعت بين الناس ، فلكل واحد منهم أن يفهم منها ما أراد أو ما استطاع . فاما ما أراد الشاعر فامر مقصور عليه حين نظم ، ولعله قد نسيه أو انصرف عنه الى غيره من المعاني فلا ينبغي أن يسأل عنه ولا أن يطالب بتبينه للناس . وأظرف وأظرف أن الشاعر يثني على الكتاب الذي يفسر قصيدته فيقول : أنه قرب هذه القصيدة الى الشبان من تلاميذه ، وأحاط بخصائصها التي تتصل بما فيها من الموسيقى والانسجام . ولكنه يقول : أوفق الأستاذ الشارح الى تحقيق المعاني التي قصد اليها الشاعر أم أخطأه هذا النوفيق

كل هذه الآراء وآراء أخرى للشاعر العظيم في هذه المقدمة الممتعة إن لم تبين المعاني التي أودعها قصيده فهي تبين شيئا آخر أظنه أقوم وأجل خطراً من هذه المعاني . وهو مذهب الشاعر في فن الشعر ، وما ينبغي له من الارتفاع عن هذا الوضوح الذي يفسد الفن افسادا ، ويقربه من الابتدال ، فهو يرى مثلا أن جمال الشعر يأتي من انك تحدد اللذة الفنية في نفسك ، كلما حددت قراءته ومن انك تستكشف في القراءة الثانية من فنون الجمال ما لم تستكشفه في القراءة الاولى ، بل تجد في كل قراءة فنونا جديدة من الجمال لم تجدها في القراءات التي سبقتها ، وأنت لا تجده هذه اللذة المتصلة المتنوعة إلا لأنك خليق

أن تستكشف في كل قراءة معنى جديدا يثير في نفسك شعورا جديدا بالجمال ، وهو يرى مثلا أن للشعر صفات تعصمه من الموت أو تعصمه من الموت القريب ، وهذه الصفات تتصل بوزنه وقوافيه و زده الصور الخاصة التي لا تجدها في النثر . وموت الاثر الفني عنده يأتي من فهم الناس له ، فانت اذا قرأت كتابا وفهمته فقد قتلته وقضيت عليه . فهناك اذن جهاد عنيف بين القارئ والمقروء ، فاذا فهم القارئ فقد غلب . وانما الاثر الفني الخليق بهذا الاسم هو الذي يغلب قارئه ويعجزه ، ولكن دون أن يضطره الى اليأس والقنوط . ومن هنا يرى شاعرنا العظيم أن النثر بطبيعة تكوينه أقرب الى الموت وأدنى الى الفناء ، لأنه أقرب الى الفهم ، وأدنى الى الهضم ، لا تعصمه هذه الدروع المتقنة التي تسمى بالوزن والقافية ، والموسيقى والصور

فاذا اضفت الى هذه المقدمة ما كتبه شاعرنا العظيم في مواضع مختلفة ، وظروف مختلفة حول الشعر والنثر والادب عامة استطعت أن تلخص مذهب في الشعر الخالص أو في الشعر العالي كما يقولون . فالشعر عنده كلام ، ولكنه كلام ممتاز ، وامتيازه لا يجب أن يأتيه من معناه وحده بل ، يجب أن يأتيه من صيغته قبل كل شيء ، فحقيقة الشعر انما تلتمس في صيغته وشكله ، تلتمس في وزنه الذي يجب أن يثير السمع ويؤثر فيه ، تلتمس في انسجامه الذي يجب أن يثير في النفس لذة الموسيقى ، أولذة أرقى من لذة الموسيقى لأنها تمس العقل والشعور والسمع جميعا ، ثم تلتمس في صورته التي تروع الخيال وتروع معه الحسن أيضا ثم تلتمس قبل كل شيء وبعد كل شيء في هذه الصفة التي لا أدري كيف اسمها أو أحدها ، والتي تضطرك الى البحث والتفكير والى جهاد ما تقرأ في غير ملل ولا يأس

وطبيعي بعد أن ثار هذا الخلاف العنيف الطويل حول هذه القصيدة أن تتجاوز حدود فرنسا ، ويعني بها النقاد الاجانب كما عني بها الفرنسيون ، كما يعنون بكل ما يصدر هذا الشاعر من الاثار . فقد ترجمت هذه القصيدة أربع مرات في اللغة الاسبانية ، وثلاثا في اللغة الانجليزية ، وثلاثا في اللغة الالمانية ولكن الغريب انها ترجمت في اللغة الفرنسية نفسها شعرا . ترجمها الكولونيل جودشو ، وأرسلها الى الشاعر ، فكتب اليه الشاعر يقول : اشكر لك خالص الشكر ما أرسلت الى من ترجمة المقبرة البحرية الى لغة أقرب الى الوضوح . وسأضيف هذه الترجمة الى التراجم الاسبانية الاربعة ، والى التراجم الانجليزية الثلاث ، والى التراجم الالمانية الثلاث ، والى تراجم أخرى لهذه القصيدة قد وقعت الى . وقد أعجبنى جدا